رسالة من جنينسكا إلى كريماص

ترجمة : محمد الداهي

صديقي الأعز

أبعث إليكم رسالة (1) غير مألوفة وبدون سبب. لا أعرف أي مصير ستؤول إليه فيما بعد. لنضعها في سياق الدردشة الحبية. في الحقيقة، ما حفزني على مكاتبتكم هو معاودة قراءة كتابكم "في النقصان"(2) – عنوان ذو رنة مونتانية–(3). اكتشفت– تحت وقع الانبهار– كم كنت متعاميا عن بُعْد لعله، ربما، الأكثر عمقا في الكتاب.

وبما أنني كنت منشغلا بقضايا المنهج، وخاصة بتداعياتها، لم أعر كبير اهتمام للقضايا ذات صلة بالأكسيولوجية السيميائية. لقد أثرتم – في كتابكم– قضايا تهمني شخصيا، بل تهمنا جميعا. لم أتوقع، قط، أن توجد في الموقع الذي وضعتموها فيه. تستوطن الفضاء الأكثر حميمية الذي يسم النصوص الشعرية. سأعرض هذه القضايا فيما يلي.

إذا افترضنا أن السيميائيات إما تكون أكسيولوجية أو لا تكون، وأن القيم –قبل كل شيء–ذات بعد جمالي (وإن لم ندرك جيدا ما تستضمره هذه الكلمة "الغريبة")، فقد حان الوقت لإضفاء البعد الأخلاقي على الجمال الذي يسكننا أحيانا إبان اللحظات المتميزة المستحضرة في نصوص كثيرة.

كانت النظرية الجمالية– في المرحلة الأولى–منفصلة عن الانشغالات الأخلاقية، ومتموضعة في منأى عن الخير والشر وبدونهما. ومما حفزها على ذلك –بدون شك– هو استمرار اعتمادها إلى حد ما على الخطاب الديني. لا يمكن للخطاب الجمالي–على عكس

الخطاب الديني الذي نعرفه أيما معرفة–أن يتحول إلى عقيدة، وإن كانت القيم التي يحملها أو تشيده تفرض علينا "واجبا".

كيف يمكن أن نعترَّف أو نتبنى برنامجا لإنجازه أو دورا للقيام به في غياب القيم المصاغة والمحددة (المفروضة انطولوجيا). أتوجد أدوار أخرى يمكن أن "نؤديها" أو نعيشها، لما تصبح الأدوار الاستهوائية المسكوكة– التي لا يتوقف المجتمع عن تلقينها لنا– تافهة.

يتخذ هذا السؤال شكلا متعالما بقلمكم، وخاصة عندما تساءلتم عن إمكانية تنظيم " الأحداث" الجمالية في مُركَّبات. ما دلالة هذه اللحظات التي تُفرض علينا كما لو كانت محملة بالمعاني. أيمكن أن يعد رهان المغامرة الجمالية قدرا أو نكتفي– يبدو أنكم لم تحسموا في أمر إنجازه– بسديمية حالات الخلاص المنتظمة (يقتضى الأمر تعليل استعمال صيغة الجمع **!**).

سؤال جوهري. مطروح على السيميائيات أيضا. ما طبيعة هذه السردية الفريدة التي لا يمكن للخطاطة الحكائية المقننة أن تستوعبها؟ اقترح بعض الشعراء في لغتهم جوابا أو أجوبة عن هذه الرغبة في المعنى التي شغلوا فيها موقعا متميزا. يعاودني الحنين اليوم إلى حماس الشباب، وإن طرأ عليه تغيير، حيال السرياليين و"مغامراتهم". الحياةُ بالنسبة لهم– وإن فهمت جيدا–هي مداومة الابتكار: ابتكار حركة أو فعل "محكم" لا تنكشف حقيقته إلا بعد فوات الأوان وتحمل عواقب المجازفة. أي موضع يمكن أن يشغله محفل الجزاء في هذه الحالة؟ وما شروط التأويل التي يضمنها بعد فوات الأوان؟ إن الإجابة المقترحة لهذه الأسئلة رهينة بإمكانية إضفاء الدلالة على العالم، واكتساب الذات نفسها شيئا من "السمك".

أ يمكن للحركة أن تكون محكمة وخالصة بدعوى أنها تتيح إمكانية مداومة الابتكار، وتجبر رسم منحنى " القدر". يستند احتمال تخيل " تركيب" " سلسلة من الأحداث" إلى إمكانية وجود نظرية جمالية خاصة بالعلاقات البشرية(4).

هل هناك ما يبرر بقاء الشاعر والشعر في البرج العاجي، وعدم نزولهما إلى الشارع؟ إن اختزال حياتنا الداخلية في الصمت هو بمثابة إخصاء فظيع**!** لا يمكن أن نتخلص منه دون الاهتمام العميق بالذات والآخر(سواء باتخاذ المسافة أو المشاركة الفعلية)، ودون أن نتلقى جوابا من الآخر المفتون بالاهتمام المماثل.

إنه اهتمام ملح ومدعو في أية لحظة إلى تشييد ذاكرة أكثر رحابة: تكون- في هذه الحالة- ذاكرة تنبؤية. اهتمام يمس متغيرات حالتنا الانفعالية، وخاصة المتغيرات الأكثر دقة وغموضا التي تتخلل لحظات تسليتنا المعتادة.

من المتفق عليه- ليس بدون سبب في بعض الحالات – أن الأهواء تتيه. وبما أنها تتنقل مثل السحب في السماء، لا يمكن لها (كما تثبت الحكمة) أن تؤدي دور المرشد الوجيه. وبما أننا- يوميا – نجهل نوع " الكوارث" الداخلية، فإننا ننتقل فجأة من وجهة نظر إلى أخرى، ومن ذاكرة وخطاب وحالة إلى ما يماثل كل واحد منها. والحال أننا مسكونين بذوات مختلفة.

هل يمكن لنا أن نتابع البحث في غياب معرفة مشيدة ؟ على أي سند يمكن أن نعتمد لمساءلة، في كل لحظة، ما يعتبر أكثر قيمة بالنسبة لنا، وهو" الحضور الفعلي للمعنى"؟ ومن سيكون حكما؟ ينتابنا شعور حرية معلقة في الهواء. لا يمكن أن نثق إلا بهذا الحكم. مما لا ريب فيه أن الحرية المعلقة مثل قطرة الماء الأخيرة(5)، لكنها مهددة بالنقصان.

هل نستطيع –في مثل هذه الظروف- أن نتجاوز البديل المستلب للوهم والواقع، والذي له سلطة القيد وأثره. يجب علينا-لتحقيق ذلك- أن نتيح لأنفسنا قراءة وقائع الحياة كما نفعل عادة مع الوقائع التي تنير أحلامنا. مما لاشك فيه، يكمن الخطر الأساس في غفونا دون قصد أثناء قراءة رواية "رديئة" (سبق أن حُكيت) عوض أن نسهم في بناء قلعة منيعة.

إن برنامج الحياة الجمالية- لا تصرحون به- يتوافق شيئا ما مع القيم المنعوتة بالاجتماعية. وإذا كان لا يعيد النظر في هوى العقد فهو يبدو- عكس ذلك- كما لو كان يقيم تعارضا بين رغبة التبادل واحترام العقود السالفة. ما رأيكم في ذلك؟ مع العلم أن كل واحد منا مضطر ليكون حكما على نفسه.

أتخلى عن معاودة القراءة وأجدد لكم عبارات الامتنان وفاء لصداقتنا المتينة.

هوامش

1-مؤرخة ب 8 مارس 1988 بزيوريخ. نشرت في موقع "أعمال سيميائية" 16 فبراير 2012. جاك جنينصكا Jaques Geninasca(1930-2010)، لساني وسيميائي سويسري. شغل منصب أستاذ جامعي بجامعة زيوريخ. عرف بأبحاثه العميقة حول أعمال جيرار دو نرفال، وبمؤلفه الذائع الصيت " الكلام الأدبي1997".

2- Algirdas Julien Greimas, *De l'Imperfection,* Fanlac, Périgueux, 1987.

3–نسبة إلى ميشيل دومنتين Michel de Montaigne (1592-1533)

4–يحيل هنا إلى العلاقة التي توطدت بين السيد بالومار– الذي كان يتجول على طول شاطئ مقفر– وامرأة ممدة على الرمل تستمتع بأشعة الشمس ونهداها عاريان. ما يهم في هذه الحال هو " الافتتان الجمالي" الذي ينجم عما يصدر عن النهد كوميض سمكة مترنحة ، ويتشخص كجمالية الأناقة المعبر عنها في الآن نفسه بالخط المنحي (تضاريس النهد) وبحركة النظرة التي تختطه عن مسافة معينة. كريماص، لوكيزو، المرجع نفسه، ص ص23–33.

5– يحيل هنا إلى شخصية روبنسون (بطل رواية " جمعة أو حياة الفطرة 1967" لميشيل تورنييه) الذي استيقظ فجأة على "صمت غريب"، جعله يصغي باهتمام بالغ إلى" آخر قطرة تسقط على حوض نحاسي". لاحظ، حينئذ، أن القطرة الموالية- التي " تعْدل حتما عن السقوط- تُمهد، مع ذلك، لقلب مجرى الزمن". كريماص، الانبهار، المرجع نفسه، ص–ص 13–22.

———

صدر حديثا

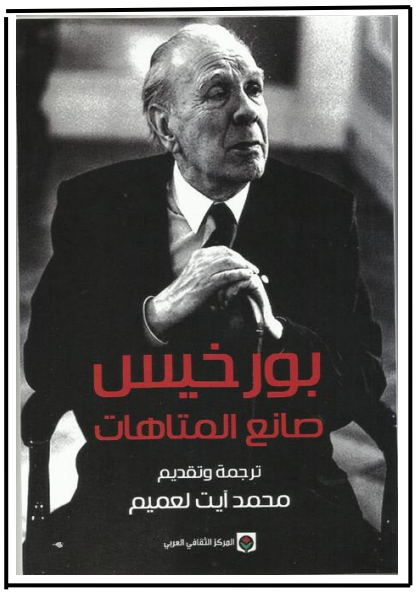
بورخيس
صانع المتاهات
ترجمة وتقديم
محمد أيت لعميم
المركز الثقافي العربي

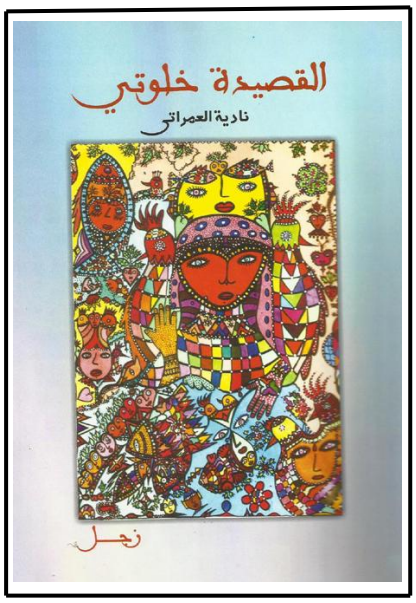
القصيدة خلوتي
نادية العمراتي
زجل